عَطاءُ الذَّاكِرينَ

٢٥ يقول رَبُّ العِزَّة سبحانه:

« مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِى عَنْ مَسْأَلتِى أَعْطَيتُه فَوْقَ مَا أُعْطِى السَّائِلينَ» (١)

الحقُّ سبحانه دائمُ العطاء لخَلْقه ، والخَلْق دائمًا يأخذون من نِعَم الله، فعبوديتك لله تعطيك ولا تأخذ منك ، وهذا يستوجب الحمد .

والله سبحانه يُحِبّ فى عطائه أنْ يطلب منه الإنسان ، وأن يدعوه ، وأن يستعينَ به ، وهذا يُوجب الحمد ؛ لأنه يقينا الذُّلَّ فى الدنيا .

فأنت إنْ طلبتَ شيئاً من صاحب نفوذ ، فلا بُدَّ أن يُحدِّد لك موعداً أو وقت الحديث ومُدَّة المقابلة ، وقد يضيق بك فيقف لِيُنهِىَ اللقاء .

أما الحق سبحانه فبابه مفتوح دائمًا ، فأنت بين يديه عندما تريد ، وترفع يديك إلى السماء وتدعو وقتما تحب ، وتسأل الله ما تشاء ، فيعطيك ما تريد إنْ كان خَيْراً لك ، ويمنع عنك ما تريده إنْ كان شَرّاً لك .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩٢٦) من حديث أبى سعيد الخدرى ، وقال: هذا حديث حسن غريب ، وكذا أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ١٠٦) ، وكذا الدارمى فى سننه (٢/ ٤٤١) بلفظ: «من شغله قراءة القرآن عن مسألتى وذكرى أعطيته أفضل ثواب السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».
قال الحافظ ابن حجر فى «فتح البارى» (٩/ ٦٦) : «رجاله ثقات إلا عطية العوفى ففيه ضعف».

والله سبحانه وتعالى يطلب منك أنْ تدعوه ، وأن تسأله ، فيقول :

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[1] (٦٠)﴾ [غافر]

ويقول تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾ [البقرة]

والله سبحانه وتعالى يعرف مَا فى نفسك ، ولذلك فإنه يعطيك دون أنْ تسألَ .

والله سبحانه عطاؤه لا ينفد ، وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سألتَه جَلَّ جلاله كان لديه المزيد ، ومهما سألتَه فإنه لا شيءَ عزيزٌ على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أنْ يُحقّقه لك .

والعلماء يقولون : إن الدعاء إنْ قصدتَ به الذِّلة والعبودية يكون جميلاً ، أما الإجابة فهى إرادة الله ، وأنت إنْ قدَّرْتَ حظَّك من الدعاء فى الإجابة عليه ، فأنت لا تُقدِّر الأمر .

إن حظَّك من الدعاء هو العبادة والذِّلة لله ، لأنك لا تدعو إلا إذا اعتقدتَ أن أسبابك كبشرٍ لا تقدر على هذه ، ولذلك سألتَ مَنْ يقدر عليها ، وسألتَ مَنْ يملك.

---

(١) دخر الرجل دخوراً : ذلَّ وصَغُر صَغَارا. وهو الذى يفعل ما يُؤمر به ، شاء أو أبى صاغرا ذميمًا. والداخر: الذليل المُهان . (لسان العرب ـ مادة : دخر) .

ولنتعلّم ما علّمه رسول الله ﷺ لعائشة أم المؤمنين.

لقد سألتْ رسول الله إذا صادفت ليلة القدر ، فقالت: إن أدركتنى هذه الليلة بماذا أدعو ؟

انظروا إلى رسول الله ﷺ ، لقد علَّم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير الواسع ، فقال لها :

« قولى : اللهُمَّ إنكَ تحبُّ العَفْو فَاعْفُ عنِّى »[1].

ولا يوجد جمالٌ أحسن من العفو ، ولا يوجد خَيْر أحسن من العفو ، فلا أقول: اعطنى ، اعطنى. لأن هذا قد ينطبق عليه قول الحق سبحانه:

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً[2] (١١)﴾[الإسراء]

والحقُّ سبحانه يضع شرطًا للاستجابة للدعاء ، وهو أن يستجيب العبد لله سبحانه وتعالى فيما دعاه إليه ، عندئذ سيكون العباد أَهْلاً للدعاء .

ولذلك قال الحق هنا فى هذا الحديث القدسى:

«مَنْ شغله ذكرى عن مَسْألتى أعطيتُه أفضلَ ما أُعطى السَّائلين ».

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ١٧١، ١٨٢، ١٨٣، ٢٠٨) والترمذى فى سننه (٣٥١٣) ، وابن ماجه فى سننه (٣٨٥٠) من حديث عائشة ﷺ .

(٢) ذكر سلمان الفارسى وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين هَمَّ بالنهوض قائمًا قبل أن تصل الروح إلى رجليه ، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه ، فلما وصلت إلى دماغه عطس فقال : الحمد لله. فقال الله : يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحهما ، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه فهمَّ بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع. وقال: يا رب عجِّل قبل الليل . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢٦) .

ومثال ذلك ؛ سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِى فى النار ، قال له جبريل : أَلَكَ حاجة ؟

لم يَنْفِ أنَّ له حاجة ، فلا يوجد استكبار على البَلْوى ، ولكنه قال لجبريل : «أمّا إليك فلا».

صحيح أن له حاجة ، إنما ليستْ لجبريل ، لأنه يعلم جيداً أن نجاته من النار المطبوعة على أنْ تحرق وقد أُلقِى فيها ، فهى عملية ليست لخَلقْ أنْ يتحكم فيها ، ولكنها قدرة لا يملكها إلا مَنْ خلق النار .

فقال لجبريل : «أما إليك فلا ، وعِلْمه بحالى يُغنى عن سؤالى » .

لذلك جاء الأمر من الحق سبحانه للنار :

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا[1] وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

والحق سبحانه يوضح لنا بهذا أنه قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، يقول للأسباب: « اعملى» أو «لا تعملى» ، وبذلك نلتفت إلى أنه المسيطر.

وذلك حتى لا تفتنَّا رتابة الأسباب ، ولنذكر الله باستمرار ، وليكون الإنسان على ذِكْر من واهب الأسباب ومن خالقها ، فلا تتولد عندنا بلادة من أن الأسباب مُستمرة دائمًا .

---

(١) البرد: ضد الحر. والبرودة : نقيض الحرارة. وقد برده برداً وبرّده : جعله بارداً. أبرد له: سقاه بارداً (لسان العرب ـ مادة : برد) . وقال الثورى عن الأعمش عن شيخ عن على بن أبى طالب فى تفسير الآية قال: لا تضر به . وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال: (وسلاماً) لآذى إبراهيم بَرْدُها. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٨٤).

والحق سبحانه يلفتنا إلى وجوده ، فتختلف الأسباب لتلفتك إلى أنها ليست فاعلةً بذاتها ، بل هى فاعلةٌ لأن الله خلقها ، وتركها تفعل ، ولو شاءَ لَعطَّلها .

وها هو إبراهيم عليه السلام ألقاه أهلُه فى النار ، ولم يُحرق ، وكان من الممكن أن يُنجِّى اللهُ إبراهيمَ بأىِّ طريقة أخرى ، ولكن هل المسألة نجاة إبراهيم؟

إنْ كانت المسألة كذلك فما كان لِيُمكِّنهم منه ، لكنه سبحانه مَكَّنهم منه وأمْسَكوه ، ولم يُفْلت منهم .

وكان من الممكن أنْ يأمرَ السماءَ فتمطر عندما ألقَوْهُ فى النار ، وكان المطر كفيلاً بإطفاء النار ، لكن لم تمطر السماء بل وتأجَّجتْ النار .

ولكن الحق سبحانه يُصْدِر الأمر الإلهى للنار :

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

بالله ، أهذا غَيْظ لهم أم لا ؟

هذا غَيْظ لهم ، فقد قدرتُم عليه وألقيتموه فى النار ، وبعد ذلك لم ينزل مطر ليطفئ النار ، والنار موجودة وإبراهيم فى النار ، لكن النار لا تحرقه .

هذه هى عظمة القدرة .

هذه هى النِّكَاية [1] ، فلو جاء إنقاذ إبراهيم بطريق غير ذلك من الأمور الغيبية غير المادية المحسَّة ، لوجد خصوم إبراهيم المخارج لتبرير هزيمتهم .

(١) نكيْتُ فى العدو أنْكى نِكاية : أى هزمته وغلبته. (لسان العرب ـ مادة : نكى).

وهذا يدلُّنا أن يَدَ الله ما زالت فى كونه ، وأن النواميس والقوانين التى وضعها الله فى كونه لم تأخذ الكلمة للتصرف فى كَوْن الله .

ولذلك رأينا النار التى تحرق يأتيها الأمر :

﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا . . ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

والماء الذى يُغرق يأتيه الأمر :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ[1] الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء]

وقال:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا[2] لَّا تَخَافُ دَرَكًا[3] وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [طه]

والعصا التى خُلقت من غُصْن شجرٍ جَافّ ، تتحول إلى أَفْعى ، أى: نقلها كلها إلى جنس آخر ، من نباتية إلى حيوانية .

هذا هو خَرْق النواميس.

---

(١) الطود: الجبل العظيم العالى. والطود: الهَضْبة. والجمع أطواد. [لسان العرب ـ مادة : طود].

(٢) يبس الشىء يبوسة :ذهبت رطوبته وجفَّ فهو يابس. والطريق اليبس: الجاف الصلب بعد رطوبته.

(٣) الدَّرَك : اسم مصدر بمعنى الإدراك واللحاق. قال تعالى : ﴿ لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾ (طه) أى : لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان حقّاً من الموقنين فى كل أدوار حياته ؛ لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملْك ، ما وراء مظاهر الأشياء وعواقبها .

وإبراهيم عليه السلام يعرف أن النار تُحرِق ، ولكن هذا ظاهر الملْك ، وظواهر الأشياء ، وسيدنا إبراهيم يعلم أن الذى خلقها جعلها مُحْرِقة ، ويستطيع ألاّ يجعلها مُحرِقة ، وهو مُتيقِّن به .

لذلك لم يسأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يفعل شيئًا ما لهذه النار ، ولذلك قال: «علْمه بحالى يُغنى عن سؤالى».

ولذلك لم يطفئ الله النار بظاهر الأسباب ، ولكنه سبحانه أوضح : يا نار ، أنا خلقتُ فيك قوة الإحراق ، وأنا أقول لك الآن : لا تحرقى.

وتروى كتب التفسير أن قوم إبراهيم عليه السلام بَنَوْا بناءً ، ووضعوا فيه حَطَبًا وأَخْشابًا ووقودًا ، وأشعلوا نارًا ، وظلوا أربعين يومًا يَسْجرون [1] فيها ، ويُلْقُون فيها كل شىء قابل للاشتعال.

وقد بلغ من فظاعة هذه النار أن الطير التى كانت تطير فوقها تقع مُحترقة.

واستدلَّ العلماء على ذلك من أنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا من النار ليُلقوا إبراهيم فيها ، فصنعوا منجنيقًا عاليًا ووضعوه فيه ، وألقوه فى النار وهم بعيدون عنها حتى لا تلفحهم شدة حرارتها.

---

(١) سجر التنور (الفرن) يسجره سَجْرًا : أوقده وأحماه. وقيل : أشبع وقوده. والسَّجور: الحطب. [لسان العرب ـ مادة : سجر].

ولكن الحق سبحانه وتعالى الذى تعهد بنصر رسله وعباده المؤمنين لم يترك نبيه إبراهيم عليه السلام لانتقام الكافرين ، ولكنه سبحانه حماه ، وحفظه من شرِّهم ، حتى يُباشِر مهمته فى الدعوة.

وهكذا أراد الحق سبحانه أن يُذِلّ الكافرين وما يتخذون من آلهة على مَشْهد من الجميع ، فقد كانت عملية إحراق إبراهيم انتقامًا ؛ لأنه حطَّم الأصنام ، وكان إحراقه على مَشْهد من الناس جميعًا.

وكان الفهم الخاطئ أن آلهة هؤلاء الكفار ستنتقم من إبراهيم بالإحراق بالنار ، فإذا بإبراهيم يُلقَى فى النار فلا تمسّه بأذى على مشهد من الجميع[1] .

وهكذا أراد الله أنْ يُبيِّن لهؤلاء الناس أنَّ ما يعبدونه هو إفْكٌ وضلال ، وأنَّ آلهتهم لا تملك حَوْلاً ولا قوة أمام النار وخاصية الإحراق ، ليريهم بالمعجزة الحسية والبرهان أن إلهَ إبراهيم هو الحقُّ ، علَّهم يهتدون ، حتى إذا ظَلُّوا على ضلالهم وشركهم يكون عذابهم فى الآخرة عَدْلاً.

وهناك أيضًا قصة سيدنا يونس عندما قاربت السفينة على الغرق ، وكان لا بُدَّ لإنقاذها أنْ يُلقى واحد إلى البحر ، وجاء القول الحكيم :

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣ / ١٧٩) أن كعب الأحبار قال: لم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه. وقال ابن عباس : لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله. قال: فكان أمر الله أسرع من أمره. قال الله : ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الأنبياء: ٦٩] . وقال : لولا أن الله عز وجل قال : (وسلامًا) لآذى إبراهيم بردُها.

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ[1] إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ[2] ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ[3] ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات]

كان لا بُدَّ أن يُلْقى واحدٌ من تلك السفينة لينجوَ الباقون ، لذلك تَمَّ إجراء قُرْعة بالسهام حتى لا تقومَ معركة بين الموجودين على ظَهْر السفينة، وحتى لا تكون الغَلَبة للأقوياء ، ولكن القُرْعة حَمَتْ الناسَ من ظُلْم بعضهم بعضًا.

قالوا: لِنُجْرِ قُرْعة السِّهام ، فمَنْ يخرج سَهْمه فهو الذى يُلْقَى به.

وكان على يونس عليه السلام أنْ ينزل إلى اليَم[4] فيلتقمه الحوت ، ولأنه من المسبِّحين فإن الله يُنقذه ، لقد قَبِل يونس عليه السلام اختيار الله ، ولم يَنْسَ تسبيحَ الله ، فكان فى ذلك الإنقاذ له.

فيونس عليه السلام كان قد ذهب مُغَاضبًا من قومه ، تأثُّرًا وحُزْنًا من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أنْ رأوا غَيْمًا يملأ السماء وعواصفَ.

---

(١) الإباق: هَرَب العبد من سيده. [لسان العرب ـ مادة: أبق] . وقال إبراهيم أحمد عبدالفتاح فى القاموس القويم (١ / ٤): «جعل ترك يونس عليه السلام قومه إباقًا ؛ لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يقوم بها».

(٢) دحضه: أزلقه. وقوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الصافات] أى : من المزلقين عن السفينة إلى الماء ، أى من المغرقين ، فقد أزلقه أصحاب السفينة وألقوه فى اليم بعد أن ساهم أى قارع وخرجت القرعة عليه.

(٣) ألام الرجلُ ، فهو مُليم إذا أتى ذَنْبًا يُلام عليه. [لسان العرب ـ مادة : لوم].

(٤) اليم: البحر الذى لا يُدْرك قعره ولا شطَّاه. ويقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحًا زُعَاقًا، وعلى النهر الكبير العذب الماء. [لسان العرب ـ مادة: يمم].

وألقى الله تعالى فى خواطرهم أن هذه العواصف هى بداية عذاب الله لهم[1] ، فَهُرعوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هى بوادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله ، فآمِنُوا به ليكشفَ عنكم الغُمَّة.

وهُرع الناس إلى الإيمان بالحى الذى لا يموت ، ولكن كان يونس عليه السلام قد ركب سفينة ، فلعبتْ بها الأمواج فاضطربتْ اضطرابًا شديدًا ، وأشرفتْ على الغرق بِرُكّابها ، فألقَوْا الأمتعة فى البحر ، لتخفَّ بهم السفينة ، فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أنْ يُلْقوا إلى البحر مَنْ تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام[2] .

مثلما نركب مصعدًا ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذارًا لنا بأن الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خُلُقًا ؛ لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين.

كذلك كان الأمر مع السفينة التى ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر.

وألقى يونس عليه السلام بنفسه فى البحر ، فالتقمه الحوت وابتلعه.

---

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج: "إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان" واختاره القرطبى فى تفسيره (٤ / ٣٣١٢) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٢١): "وقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام ثلاث مرات ، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك .

﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات]

فَبطْن الحوت رغم ضيقه وَسِعه مدة من الزمن ، حتى ذهب ولَفَظه على الشاطئ ، فألقاه الحوت إلى الشاطئ .

﴿ فَنَبَذْنَاهُ[1] بِٱلْعَرَآءِ[2] وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الصافات]

أى: وهو مُتْعب من الضيق الذى كان فيه ، أو سقيم من التفكير الذى حدث منه ، فالسقم إما مادى أو معنوى أو كلاهما [3] .

وبعد أن ألقاه الحوت إلى الشاطئ أنبت الله عليه شجرة من يقطين ، قال تعالى:

﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الصافات]

واليقطين : شجر له ورق عريض ويسمى القَرْع ، حتى تُظِله وتحميه من الحرارة والحشرات [4] .

---

(١) النبذ: طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك. ونبذت الشيء : إذا رميته وأبعدته . [لسان العرب ـ مادة: نبذ].

(٢) قال ابن عباس وغيره: هى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء. وقيل: على جانب دجلة. وقيل : بأرض اليمن. فالله أعلم. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٢١) .

(٣) قال ابن مسعود ﷺ : كهيئة الفَرْخ (أى: ولد الطائر) ليس عليه ريش. وقال السدى: كهيئة الصبى حين يولد. [انظر ابن كثير ٤ / ٢١] .

(٤) قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٢١): «ذكر بعضهم فى القرع فوائد منها: سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وأنه يؤكل نيئًا ومطبوخًا وقشره أيضًا».

ولذلك سُئِل رسول الله ﷺ عن سرِّ حُبِّه لليقطين (القرع)، فقال: «إنها شجرة أخي يونس»[1].

والحق سبحانه يقول:

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ[2] فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات]

فكونه من المسبِّحين[3] جعله موضعًا للَّوم والعتاب لا للإيذاء والعذاب، فنعاتبه على أمر لا يصح أنْ يفعله لأننا نحبه.

وقد كان دعاء يونس عليه السلام في بطن الحوت:

﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء]

---

(١) قال العسقلاني في الفتح (٩ / ٥٢٥): «للنسائي «كان ﷺ يحب القرع ويقول: إنها شجرة أخي يونس» وقد أخرج ابن ماجه في سننه من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يحب القرع».

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢١): «اختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت. فقيل: ثلاثة أيام. قاله قتادة. وقيل: سبعة. قاله جعفر الصادق رضي الله عنه. وقيل: أربعين يومًا. قاله أبو مالك: وقال مجاهد عن الشعبي: التقمه ضحى، ولفظه عشية. والله تعالى أعلم بمقدار ذلك».

(٣) أخرج ابن إسحاق والبزار وابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس عليه السلام في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش له لحمًا، ولا تكسر له عظمًا، فأخذه ثم أهوى به إلى مسكنه في البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حسًا فقال في نفسه: ما هذا!! فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب الأرض، فسبّح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة عليهم السلام تسبيحه، فقالوا: ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غربة. قال: ذاك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم عمل صالح؟ قال: نعم. فشفعوا له عند ذلك، فأمره، فقذفه في الساحل كما قال الله (وهو سقيم). ذكره السيوطي في الدر المنثور ـ طبعة دار الفكر (٧ / ١٢٣).

فاستجاب الله تعالى لدعائه ، وأنجاه من الغَمِّ ، والغَمُّ أعنف جنود الله ، لأن الشيء الذى يضايقك هو الذى لا تستطيع له دَفْعًا.

وقد كان سيدنا جعفر الصادق له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها، فقال:

«عجبتُ لمن خاف ، ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه:

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

فإنى سمعت الله يقول بعقبها :

﴿ فَانقَلَبُوا (١) بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ [آل عمران]

وعجبت لمن اغتمَّ ، ولم يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

فإنى سمعت الله تعالى يقول عقبها :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكِر به ، كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر]

لأنى سمعت الله تعالى يقول بعقبها :

---

(١) انقلبوا : رجعوا . ويقول تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) ﴾ [الأعراف].

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ[1] بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ، كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ (٣٩) ﴾ [الكهف]

لأنِّى سمعت الله تعالى يقول بعقبها :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا[2] مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا[3] زَلَقًا (٤٠) ﴾ [الكهف]

وهكذا وجد جعفر الصادق رحمه الله فى كتاب الله أربعَ آياتٍ لأربع حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم.

ونحن نعرف أن أول ما يُهدِّد حياة الإنسان هو الخوف ، وقد يكون غير معروف سببُه ، ومرة يحدث للإنسان انقباض قد لا يعرف سببه ، فيقول : أنا صدرى منقبض ، ولا أعرف له سببًا ، فهذا غَمّ لا يُعرف سببه .

وهناك مَنْ يخاف من مَكْر الناس به ، وهناك مَنْ يطلب الدنيا ، ويريد أن يكون عنده كذا وكذا من متاعها وزينتها.

فهذه الأحوال التى تعترى الإنسان :

---

(١) حاق به الشىء حيقًا : نزل به وأحاط به. وقيل : الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فعله. [اللسان ـ مادة: حيق].

(٢) الحسبان: العذاب والبلاء. والحسبان أيضًا: الجراد والعَجاج. قال أبو زياد: الحسبان شر وبلاء. [لسان العرب ـ مادة : حسب].

(٣) صعيدًا زلقًا: أى بلقًا (أرضًا قفرًا لا شىء بها) ترابًا أملس لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس : كالجرز الذى لا ينبت شيئًا. [قاله ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٨٤)].

إما خوف ، وإما غمّ وكَرْب يلحق به دون أن يعرفَ له سببًا.

وإما أنْ يخاف من مَكْر الناس به وتآمرهم عليه.

ومرَّة يشغل نفسه بطلب الدنيا ويسعى إلى تحقيق أهداف معينة ، ويريد أن يترف حياته ، ويرقى معيشته ، ويجهد نفسه فى سبيل الحصول على هذه الأشياء .

فسيدنا جعفر الصادق عمل (روشتة) للإنسان المؤمن وأخذها من القرآن ؛ لأن الطبيب حينما يكتب روشتة لمريض يكون قد أخذ هذا العلم مِمَّا قرأه ودرسه من كتب ومراجع فى كلية الطب وغيرها.

ولكن جعفر الصادق أتى بهذه الروشتة للإنسان من خالق الإنسان ، من قرآنه الكريم .

والقرآن هو الذكر ، ورب العزة يقول فى حديثه القدسى :

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ».

وقد وردتْ معانٍ كثيرة للذكر فى القرآن ، وأول هذه المعانى وقِمّتها أن الذكر حين يُطلق يُراد به القرآن :

﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ [آل عمران]

وكذلك فى قوله الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]

ولأن إنزال الذكر عملية عظيمة ، فنأتى بـ «نون العظمة».

لأننا سنُنزله بقدرة ، وسنُنزله بحكمة ، وننزله بعلم ، ونُنزله بسمع ، وننزله ببصر ، وننزله بقيومية ، وننزله بقبض ، ونُنزله ببسط .

إذن : يُطلق الذكر ، ويُراد به القرآن.

ومرَّة يُطلق الذكر ويُراد به الصيت. أى : الشهرة الإعلامية الواسعة.

وقد قال الحق لرسوله عن القرآن :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف]

أى: أن القرآن شرفٌ كبير لك ولأمتك ، وسيجعل لكم به صِيتًا إلى يوم القيامة ؛ لأن الناس سترى فى القران على تعاقب العصور كُلَّ عجيبة من العجائب ، وسيعلمون كيف أن الكون يُصدِّق القرآن .

إذن : بفضل القرآن العربىّ سيظل اسمُ العرب مُلتصقًا ومرتبطًا بالقرآن ، وكُل شرف للقرآن ينال معه العرب شَرَفًا جديدًا .

أى : أن القرآن شَرَفٌ لكم .

ويقول سبحانه:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

أى: فيه شرفكم ، وفيه صِيتكم ، وفيه تاريخكم ، فشرَفُ القوم يجىء من شَرَف القرآن ، ومن صِيت القرآن .

والحق سبحانه يقول :

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِي ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [ص]

أى : أن شرفه دائم أبدًا.

ويُطلق الذِّكْر ، ويُراد به ما نزل على جميع الرسل.

يقول تعالى:

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) ﴾ [الأنبياء]

أى : أن كل ما نزل على الرسل ذِكْر .

ويقول أيضًا :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ (١) وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾

[الأنبياء]

ومرّة يُطلق الذكر ، ويُراد به معنى الاعتبار والتذكير ، والتذكُّر ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ(٢) وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾

[المائدة]

---

(١) كل ما فُرق به بين الحق والباطل فهو فرقان ، فسمّى جل ثناؤه الكتاب المنزل على محمد ﷺ فرقانًا ، وسمى الكتاب المنزل على موسى عليه السلام فرقانًا . والمعنى : أنه تعالى فرق بكل واحد منهما بين الحق والباطل. [لسان العرب ـ مادة : فرق].

(٢) الأزلام: جمع زَلَم ، وهو قطعة خشبية تشبه السهم يقترعون بها ، فيقسمون بها الذبائح يكتب على كل زلم عدد الأنصباء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له ، وهو نوع من الميسر المحرّم شرعًا. =

والمراد هنا بالذكر: الاعتبار والتَّذكر، وأنْ تعيشَ كمسلم فى منهج الله.

ومرَّة يُراد بالذكر: التسبيح والتحميد.

انظر إلى قول الحقِّ سبحانه وتعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ(١) (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور]

كأن النورَ على النورِ يأتى من مَطَالع الهدى فى مساجده، فهى بيوت الله نُقبل عليها ليفيض منها نور الحق على الخلق.

والإنسان الصادق لا تُلهيه التجارة عن ذكر الله، وليكن الله على بال المؤمن دائمًا، فعندما يكون الإنسان على ذكر لله فالله يعطيه من مدده.

فأنت حين تذهب إلى المسجد لتَلْقىَ الله، فذلك النور، وتصلى له فذلك نور، وتخرج من هذا النور بنور يهبط عليك فى بيته.

وكل هذا نور على نور، فمن أراد أن يتعرض لنفحات نور الله عز وجل فَلْيُكثِر من الذَّهَاب إلى بيت الله.

وللمساجد مهابة النور لأنها مكان الصلاة، ونعلم أن الصلاة هى الخلوة التى بين العبد وربه، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة(٢).

= والأنصاب: جمع نُصُب، وهو ما يُنصب ليعبد من دون الله، أو ليذبح عنده الذبائح تقربًا إليه أو إلى الأصنام.

(١) الأصيل: العشىّ. والجمع: آصال. والأصيل: الوقت حين تصفر الشمس بعد العصر إلى المغرب. [لسان العرب ـ مادة: أصل].

(٢) عن حذيفة ﷺ قال: «كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥ / ٣٨٨)، وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

وأنت إذا ما اتبعتَ حضرة النبى ﷺ وتصلى ركعتين لله إن حَزَبَك[1] أمر ، وعزَّتْ عليك مسألة وكانت فوق أسبابك ، ثم ذهبتَ بها إلى الله ، فلن يُخرجك الله إلاّ راضيًا.

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النور]

والغدو والآصال ، أو البُكْرة والأصيل ـ كما عرفنا ـ هى أزمنةُ أولِ النهار ، وأزمنةُ أوّلِ الليل.

ولماذا أزمنة أوّل النهار ، وأزمنة أول الليل ؟

لأن هذه الأزمنة هى التى يُطلب فيها الذكر ، فقبل أنْ تخرج للعمل فى أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة.

وفى نهاية النهار ، أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم.

لذلك إياك أنْ تشغلَك الحياةُ عن واهب الحياة ، ولك أن تذكر ربنا وأنت تعيش مع كل عمل تُؤديه وتقوم به.

وأنْ تقابل كل نتيجة للعمل بكلمة : الحمد لله.

وعندما ترى أىّ جميل من الوهّاب ـ سبحانه وتعالى ـ يجب عليك أن تقول : «ما شاء الله».

---

(١) حزبه الأمر : إذا نزل به واشتد عليه. والأمر الحازب والحزيب : الشديد . [لسان العرب ـ مادة:حزب].

وعندما ترى أيَّ شيء يعجبك تقول : «سبحان الله».

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوى زيارته فى بيته ، فأنت فى صلاة وذِكْر منذ أن تبدأ فى الوضوء فى بيتك استعدادًا للصلاة فى المسجد ؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أنْ يُطيل عليك نعمة أن تكون فى حضرته[1]

وبيت الله مفتوح لك دائمًا ، فهو سبحانه يَلْقاك فى أيِّ وقت ، وتدعوه بما تشاء ، وتُطيل فى حضرته كما تريد.

وقد يُطلق الذكر ويُراد منه خير الله على عباده ، ويُراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ، فسبحانه يذكرُهم بالخير ، وهم يذكرونه بالطاعة .

اقرأ إنْ شِئْتَ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

[النحل]

وفى آية أخرى:

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

وما دام قد قال جل وعلا: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ.. ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

---

(١) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: « إذا تطهر الرجل ثم أتى المسجد يرعى الصلاة كتب له كاتباه ـ أو كاتبه ـ بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات ، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت ، ويُكتب من المصلين من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه » أخرجه أحمد فى مسنده (٤ / ١٥٧) وابن حبان (٤٢١ ـ موارد الظمآن).

أى : ذكر الله لهم بالنعم والخيرات ، فَذِكْره فضل وإحسان ، وهو الكبير المتعال ، فهناك إذن ذكر ثانٍ ، ذكر أقل منه ، وهو العبادة لربهم بالطاعة.

والذكر مرور الشيء إنْ كان بالبال فهو ذكر فى النفس ، وإنْ كان باللسان ولا يُسمِع الغير ويُسمِعك أنت فهذا ذكر السرّ .

وإنْ كان جَهْرًا فهو قسمان :

جَهْر مقبول ، وجَهْر غير مقبول ، والجهر غير المقبول هو أن يتحوّل الذكر إلى ازعاج ، والعياذُ بالله .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ .. ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف]

فهو تذكير لك بما حباك به من أفضال ، خلقك وربَّاك ، وأعطاك من فيض نعمه ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى ، فاذكُرْ ربك ؛ لأنك إنْ لم تعشقْهُ تكليفًا ، فأنت قد عشقْته لأنه يُمِدُّك بالنعم ، وسبحانه يتفضَّل علينا ويُوالينا جميعًا بالنعم .

واذكُرْه على حالين: الأول تضرُّعًا ، أى : بِذِلَّة. لأنك قد تذكر واحدًا بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بِذِلَّة عبودية لمقام الربوبية.

واذكر ربك خِيفةً . أى : خائفًا متضرعًا ؛ لأنك كلما ذللتَ له يُعِزك .

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ [البقرة]

فلتعيشوا دائمًا فى ذكر مَنْ أنعم عليكم ، فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر ، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم.

والله سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى :

«أنا عند ظن عبدى بى [١]، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإنْ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، وإنْ ذكرنى فى ملأٍ ذكرتُه فى ملأ خَيْرٍ منه ، وإنْ تقرَّب إلىّ بشبر تقرَّبْتُ إليه ذراعًا ، وإن تقرَّب إلىَّ ذراعًا تقرَّبْتُ إليه باعًا [٢]، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة [٣] »[٤].

هذه هي رغبة الكريم فى أنْ يعطى بشرط أن نكون أهلاً للعطاء ؛ لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر.

فقوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (١٥٢) ﴾ [البقرة]

---

(١) نقل ابن حجر العسقلانى فى الفتح (١٣ / ٣٨٦) قول القرطبى فى المفهم: «قيل: معنى ظن عبدى بى ظن الإجابة عند الدعاء ، وظن القبول عند التوبة ، وظن المغفرة عند الاستغفار ، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكًا بصادق وعده».

(٢) قال الباجى: الباع طول ذراعى الإنسان وعضديه وعرض صدره ، وذلك قدر أربعة أذرع. [فتح البارى ١٣ / ٥١٤].

(٣) الهرولة: الإسراع. والحديث كناية عن سرعة إجابة الله عز وجل وقبول توبة العبد ولُطفه ورحمته [لسان العرب ـ مادة : هرول].

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) وأحمد فى مسنده (٢ / ٢٥١، ٣٥٤ ، ٤٠٥) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة ﷺ . قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

أى: اذكروا الله فى كل شىء : فى نِعَمه ، فى عطائه ، فى سِتْره ، فى رحمته ، فى توبته .

واعلم أنك إن اعتمدتَ على الله وحده إلهًا فأنت قد اعتمدْتَ على عزيز لا يُغلب على أمره ، فإنْ آمنتَ به وحده ، فلك الفوز .

فأنت تلجأ إلى خالق أعلى ، بيده مقاليد كل شىء ، وهو على كل شىء قدير ، وعظمة الحق سبحانه أنه واحد أحد فَرْد متفرد صمد [1] .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ فى وصيته لابن عباس:

«إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله»[2] .

والاستعانة بالله سبحانه تُخرجك عن ذُلِّ الدنيا ، فأنت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغَ نفوذه وقوته ، فكُلُّها فى حدود بشريته.

ولأننا نعيش فى عالم أغيار ، فإن القوىَّ يمكن أن يصبح ضعيفًا ، وصاحب النفوذ يمكن أن يُصبح فى لحظة واحدة طريدًا شريدًا لا نفوذَ له ، ولو لم يحدث هذا فقد يموت ذلك الذى تستعين به ، فلا تجد أحدًا يُعينك.

---

(١) الصمد: السيد المطاع الذى لا يُقْضى دونه أمر . وقيل : الذى يُصْمد إليه فى الحوائج أى يُقْصد. وقيل : الصمد الدائم الباقى بعد فناء خَلْقَه. [لسان العرب ـ مادة : صمد].

(٢) تمام الحديث أن رسول الله ﷺ قال: « يا غلام ، إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف ».

أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١ / ٢٩٣ ، ٣٠٧) ، والترمذى فى سننه (٢٥١٦) ، والحاكم فى مستدركه (٣ / ٥٤١) من حديث ابن عباس.

ويريد الله تبارك وتعالى أن يُحرِّر المؤمن من ذُلِّ الدنيا ، فيطلب منه أنْ يستعينَ بالحيِّ الذى لا يموت.. وبالقوى الذى لا يضعف.. وبالقاهر الذى لا يخرج عن أمره أحد .

وإذا استعنتَ بالله سبحانه وتعالى كان الله جَلَّ جلاله بجانبك ، وهو وحده الذى يستطيع أنْ يُحوِّل ضعفك إلى قوة ، وذُلَّكَ إلى عِزٍّ.

والاستعانة معناها طَلب المعونة ، أى : أن الإنسانَ استنفد أسبابه ولكنها خذلتْه ، حينئذ لا بُدَّ أن يتذكر أن له ربًا لا يعبد سواه ، لن يتخلى عنه ، بل يستعين به.

وحين تتخلى الأسباب فهناك رَبُّ الأسباب ، وهو موجود دائمًا ، لا يغفل عن شىء ، ولا تفوته هَمْسة فى الكون ، ولذلك فإن المؤمن يتجه دائمًا إلى السماء ، والله سبحانه وتعالى يكون معه .